جامعة تكريت

كلية التربية للبنات

قسم التاريخ

المرحلة : الرابعة

المادة: تاريخ البلاد العربية المعاصر

عنوان المحاضرة : الوطن العربي في مواجهة التغلغل الاستعماري

أسم التدريسي : ا.م د. رؤى جمال خضر

الإيميل الجامعي للتدريسي : ruaa.j.k@tu.edu.iq

الوطن العربي في مواجهة التغلغل الاستعماري

شهدت بداية العصور الحديثة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حركة مهمة للتوسع الأوربي شملت مناطق مختلفة من الكرة الأرضية . فقد فتح النشاط الاقتصادي في أواخر القرن الخامس عشر لأوربا آفاقاً جديدة للتجارة والرخاء ، فاندفع الأوربيون بحماس كبيريج وبون بحار العالم ومحيطاته بحثاً عن طرق جديدة توصلهم إلى الشرق . هذا بالاضافة الى رغبتهم بالحصول على التوابل والحرير . وكان البرتغاليون والاسبان في مقدمة القوى الأوربية التي تحملت عبء حركة الاستكشافات الجغرافية . اذ كانت هاتان الفئتان في اشتباك مزمن مع العرب وخاصة بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. وقد تركزت نقاط الصدام بين المستعمرين الأوربيين والعرب منذ منتصف القرن الخامس عشر في منطقتين حيويتين الأولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الأفريقي المتمثل بالبحر المتوسط والمحيط الاطلسي . والثانية في المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.

١- الغزو البرتغالي للمغرب الاقصى :

تطلع البرتغاليون الى اقطار المغرب العربي الاقصى وعملوا على تطويقها واحتلال موانيها المطلة على البحر المتوسط . وقد ابدى ملك البرتغال خوان الأول (١٣٨٥-١٤٣٣) اهتماماً كبيراً بالبحرية والاساطيل لاحتلال القواعد والمراكز التي تسيطر على الطرق التجارية وأنتهز فرصة الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه أقطار المغرب العربي في أعقاب سقوط دولة الموحدين سنة ١٢٧٥ وظهور قوى متنافسة فيما بينها على السلطة كالمرينيين (١٢٦٩ -١٤٢٠) والوطاسيين (١٤٢٠-١٥١٠) وغيرهما ، فهاجم سنة في آب ١٤١٥ واستولى عليها في محاولة للسيطرة على الساحل الأفريقي الشمالي . وقد بدأ البرتغاليون بنقل الذهب والمنتجات الزراعية في أفريقيا بحرا إلى لشبونة . ونافسوا بذلك طرق القوافل المارة بمصر . وقد سعى المرينيون لاستعادة سبتة. حين هاجمها السلطان أبو سعيد المريني ، الا أن البرتغاليين احبطوا المحاولة ، وفي تشرين الأول ١٤٥٨ أحتل البرتغاليون ميناء القصر مصمودة او قصر معمورة بين سبتة وطنجة كما استطاعوا وضع حمايتهم على أزمور سنة ١٤٦٨ وفي سنة ١٤٧١ احتلوا اصيلا وطنجة والعرابش . ولم تبق حرة الا تطوان التي ظهرت فيها حركة مقاومة ضد الغزو البرتغالي بقيادة المندري

قائد حاميتها . كما ظهرت في مدينة شفشاون سنة ١٤٧١ ، وتقع على ارتفاع الف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان . حركة مقاومة قادها الشريف العلمي علي بن راشد امتاز الغزو البرتغالي بخصائص عديدة ابرزها سيطرة الطابع العسكري والاكتفاء في بداية الأمر بالمدن الساحلية. وكانت محاولة التوغل والتحكم في المناطق الداخلية اعتمادا على حصن جزيرة المليحة عند التقاء نهر اللكوس ونهروادي المخازن اول محاولة في هذا الاتجاه .

لقد أستمر البرتغاليون في توسعاتهم فاتجهوا نحو المغرب الأوسط ، واقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة ١٤٨٣ . وامتد نفوذهم الى مدينة مراكش نفسها وسرعان ما ظهرت الدولة السعدية في الجنوب الغربي من وادي السوس لتتحمل مهمة الدفاع عن البلاد وصد الغزو البرتغالي. وكانت بعض جهات الوادي المذكور وخاصة مدينة أغادير قد وقعت في ايدي البرتغاليين. ونجح سلاطين هذه الأسرة في تحرير كثير من موانىء مراكش . ففي سنة ١٥٤١ هاجم السلطان محمد المهدي قلعة سانتا كروز في اقليم العيون الصحراوي واستولى عليها وكان من نتيجة الاندحار البرتغالي هذا اخلاء جميع النقاط المحتلة في أقل من عشر سنين باستثناء سبتة وطنجة ومازاغان وخرج النفوذ السعدي من هذا الأمر عظيماً فنودي بمحمد المهدي سلطاناً على مراكش كلها سنة ١٥٤٥

٢- الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الأحمر :

كان لظهور البرتغاليين اوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي واقطاره. فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الأحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج العربي من مصدر اساس من مصادر ثروتها ولقد تحمل ممالك مصرفي بادىء الأمر ، باعتبارهم القوة الاسلامية الوحيدة مواجهة الخطر البرتغالي الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية الى الهند . كما يهدد المراكز الاسلامية المقدسة في الجزيرة العربية خاصة بعد أن اتضحت اهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والاماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين وتجلى ذلك في رعبة القائد البرتغالي الفونسو البوكيرك الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق اهداف البرتغاليين الاستعمارية . وقد ادرك البرتغاليون ان رد الفعل لغزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين ، يحتمل ان يجيئوا المساعدة ابناء دينهم

.... في الخليج العربي .. وعلى الرغم من اختلاف الاهداف السياسية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الاقطار العربية ، غير ان المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع أثناء الربع الأول من القرن السادس عشر، خاصة بعد فشل المماليك في محاولاتهم حماية حدودهم الجنوبية وابعاد الخطر الإتغالي اثناء السنوات الممتدة بين ١٥٠٦ و ١٥٠٩ من جهة ، واندحار الصفويين الفرس امام العثمانيين في معركة جالديران سنة ١٥١٤ من جهة أخرى . وقد سعى القائد البرتغالي البوكيرك بعد ان عرف بهزيمة الفرس الى تجهيز الشاه اسماعيل بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويون من اضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

بالرغم من فشل القائد البوكيرك في احتلال عدن سنة ١٥١٣ بسبب المقاومة الباسلة التي ابداها عرب عدن ، غير انه استطاع الدخول الى البحر الاحمر واحتلال جزيرة كمران الواقعة امام ميناء الصليف شمالي الحديدة فاصبح لذلك ميناء جدة معرضاً لخطر مدفعية البرتغاليين . وقد تمكن القائد العثماني سليمان ريس في سنة ١٥١٧ وسنة ١٥٢٥ احباط الهجمات البرتغالية على جدة وابعاد خطرهم عن مكة المكرمة

٣- الغزو الاسباني للجزائر وطرابلس وتونس :

اتخذ الغزو الاسباني لاقطار المغرب العربي طابعاً استعمارياً اذ لم يقتنع الاسبان بالقضاء على الوجود العربي في الاندلس وانما هدفوا الى مطاردة العرب في شمال افريقيا والوصول الى مصادر ثروتهم الاساسية . ولقد بارك البابا اسكندر بورجيا الرابع عشر نشاطات الاسبان في هذا المجال ونشر قراراً يعطي الولاية لملكي انسانيا على الأراضي التي يبسطان السيطرة الأسبانية عليها

لقد أحتل الأسبان مرفأ عنابة سنة ١٤٦٤ وبعد حصار دام قرابة شهرين ومقاومة عنيفة من سكانها استطاع الأسبان أحتلال مدينة المرسى الكبير غربي الجزائر في ايلول ١٥٠٥ وفي ١٧ آذار ١٥٠٩ أحتل الأسبان مدينة وهران التي كانت تبعد عن المرسى ثمانية كيلو مترات. كما أحتلوا في ٥ كانون الثاني ١٥١٠ مدينة بجاية وبعد أستيلائهم على جزيرة أسطفلة أصبحت مدينة الجزائر ضمن مدى مدفعيتهم فأحتلوها سنة ١٥١١. وحاولوا التوغل داخل الجزائر لكنهم فشلوا بعد المقاومة العنيفة التي أبداها السكان.

لم تقف مطابع الأسبان عند أحتلالهم الجزائر ، بل أمتدت لتشمل طرابلس التي تمكنوا من أقتحامها يوم ٢٥ تموز ١٥١٠ بعد أن بلغت خسائرهم قرابة (٣٠٠) قتيل . وفي ٢١ حزيران ١٥٣٥ أحتل الأسبان مدينة تونس وأباحوا لجنودهم نهبها انتقاماً من أهلها الذين قاوموا الاحتلال.

وهكذا كان الأحتلال الأسباني للجزائر وطرابلس جزءاً من خطة اوربية أستعمارية استهدفت تطويق العالم الأسلامي والوطن العربي وذلك لمحاولة أخضاع هذه المنطقة. لنفوذهم والسعي لطمس معالم الحضارة العربية . وقد أستطاع الأسبان والبرتغاليون من توجيه ضربة شديدة الى أقتصاد الوطن العربي بعد أن وضعوا ايديهم على تجارته فأصبحوا قادرين على ايصال البضائع الى اوربا بأسعار نقل عن أسعار البضائع التي كانت تمر بالأقطار العربية وتدفع رسوماً كثيرة .

لم يكن العثمانيون ، وهم القوة الفتية في العالم الأسلامي آنذاك، كما أشرنا من قبل بغافلين عن تلك التطورات الخطيرة التي كانت تحرك العالم في مطلع القرن السادس عشر الأمر الذي أدى الى اندفاعهم في البحار ذات القيمة التجارية ولاسيما منها البحر المتوسط والمحيط الهندي. ولقد ذكرنا فيما سبق أن التغلغل الاستعماري الأوربي في الوطن العربي كان من العوامل التي جديت الدولة العثمانية إلى المنطقة العربية . لذلك وجد السلطان سليم الأول أن على الدولة العثمانية اذا مالرادت المحافظة على ممتلكاتها ان ترمي ثقلها في ذلك الصراع قبل فوات الأوان فتوجه نحو الوطن العربي يقصد من ذلك تحقيق عدة أهداف أهمها بسط السيطرة العثمانية على الحوض الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط ، وأبعاد نفوذ البنادقة والجنوبين عنه والحد من عبت القرصنة الأوربية ، وتأمين المواصلات البحرية للدولة العثمانية وتجارتها، والوصول الى الأماكن المقدسة وحمايتها من أمكانات عبث البرتغاليين بعد أن ثبت اخفاق المماليك في هذه المهمة ، والسعي لأعادة المنطقة الأسلامية الى وحدتها السابقة وهيبتها الماضية وأبعاد مطامع الأوربيين ومنعهم من تطويق الدولة العثمانية وسد منافذ التجارة عليها